الاتحاد العربي للمدارس الخاصة
Arab Private Schools Federation

ميزان الظلّ الإلهيّ

360 KNO SMART SCHOOLING
ADVANCE THROUGH TECHNOLOGY

unicef

UNESCO
United Nations
Educational, Scientific and
Cultural Organization

GenEx
Generational Education Exchange

تمكين
TAMKEEN

UNIVERSITY OF VICTORIA
LONDON - UK

AMIEE
American International Education Federation

د. خميس بن عبيد العجمي

رئيس الاتحاد العربي للمدارس الخاصة

رئيس مجلس أمناء مدارس كينو الخاصة بسلطنة عمان

تخيَّل معي للحظة:

أرضاً مستوية لا تجد فيها عوجاً ولا أمتاً..

وشمساً تدنو من الرؤوس مقدار ميل..

وعرقاً يتصبَّب حتى يبلغ من الناس مبلغه بحسب أعمالهم...

وصرخاتٍ وزحاماً وقلوباً واجفة لا تدري أمصيرها الجنة أم النار ..

في هذا المشهد المهيب من يوم القيامة، يوم لا تملك فيه نفسٌ لنفس شيئاً، يوم تتخلّى الأم عن رضيعها، والمرء عن أخيه وصاحبته وبنيه، يبرز سؤال محوري يقضّ مضاجع الواعين:

أين الملاذ؟ أين المفرّ؟ أين الظلّ الذي به النفوس تستظل؟ أين الملجأ من لفح ذلك اليوم العظيم؟

وفي هذه اللحظة المصيرية، حيث تُكشف الحقائق وتنزاح الأقنعة، يتجلّى فضل اللّٰه على سبعة أصناف من عباده، اختصّهم بمنزلة لا يدركها إلاّ من عاش حياته مترقّباً لهذا اليوم، متأهّباً بزاد التقوى، صانعاً من أيامه في الدّنيا جسراً إلى رحمة اللّٰه في الآخرة....

فحديث الرسّول ﷺ حول السبعة الذين يظلّهم اللّٰه بظلّه يوم القيامة يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، ليس مجرّد بشارة، بل هو منهج حياة ومرآة نقيس بها أنفسنا إنْ كنّا من ضمن هؤلاء السّبعة...

فأوّلهم؛ حامل ميزان العدل في زمن الجور، إمام عادل....

ففي عصر تتقاذف فيه الأمّة رياح الظلم، وتتناوشها أمواج الطغيان، يبرز الإمام العادل منارةً في ظلمات الجور، وليس أيّ إمام، فهو ليس بجسد يتربّع على عرش السلطة وحسب، إنّما هو قلبٌ يخفق بمراقبة اللّٰه قبل أنْ تراه عيون الرعية، وعقل ينشغل بتطبيق العدل وإقامته بينهم، وضمير يوقن بأنّ العدل ثقيل ويحتاج إلى شجاعة لتحقيقه، وجوارح ترفض اتّباع النّفس والهوى، وسلوك يقيم العدل على الجميع سواسية، وينصف الضعيف من القويّ مهما كان الثّمن

فهو ما دام جارياً في تطبيق عدله بين رعيّته، كان عدله له ظلاً يوم القيامة، ولا يعني ذلك أنْ يقتصر العدل وتطبيقه على الحاكم وحسب، إنّما يسقط ذاك الوصف على كلّ ذي مسؤولية، من أب وأم ومدير وقائد، في البيت والعمل والمؤسسة، فالعدل والإنصاف ورفض المحاباة والوساطة كلّها بذور تُزرع في أرض الدنيا لتؤتي ثمارها ظلاً وارفاً في الآخرة....

وثانيهم؛ زهرة الإيمان في حديقة الشباب، شابّ نشأ في طاعة اللّٰه....

ففي لحظة التاريخ الإنساني الأكثر إغراءً وفتنة، وحين تُفتح أبواب الشهوات على مصراعيها، وتُزيَّن المعاصي وتُسوَّق تحت مسمّيات الحرية والانطلاق، يقف الشابّ المؤمن شامخاً كالطود، رافضاً أنْ يكون أسيراً للهوى والشهوات، ماضياً في طريق الإيمان والطاعات، فهذا الشاب رغم أنّه قد عاش في قلب الفتن، إلاّ أنّه قد اختار أنْ يكون في الدنيا لا منها، ورغم أنّه قد رأى أقرانه ينحرفون لم ينجرف، وسمع نداءات الهوى فأجاب نداء الهدى، وعُرضت عليه المتع فاختار المساجد، وصادفته الشاشات بإغراءاتها فاختار القرآن، فها هو اليوم هو وجيله من الشباب يصارعون في معركة لم يواجهها جيل من قبل، فقد باتت الإباحية على بُعد نقرة، والانحلال يُقدَّم كتحضرّ، والالتزام يُسمَّى تخلفاً، فغدا كلّ شابّ يقاوم هذا التيار مجاهداً في معركة حفظ النّفس ومن ثمّ الأمّة جمعاء من الضياع...

وثالثهم؛ قلبُ رجل يسكن في بيوت اللّٰه...

ففي أوقات نجد فيها قلوبنا تتوق إلى ما تحبّ، نجد قلب رجل محبّ للّٰه، يشتاق لبيت اللّٰه، ويتعلّق بالمساجد لا من ناحية عاطفيّة شعوريّة وحسب، إنّما هو تعلّق إيمانيّ يعكس صحة القلب وميله، فهو في يقين عميق وإدراك واعٍ لأهميّة وجماليّة أنْ يكون لدينا مكان في الأرض نتوق للتّواجد فيه، مكانٌ يشتاق له القلب قبل القدم، فالمسجد في نظره ليس مجرّد مبنى تُقام فيه الصلوات الخمس، بل هو واحة الروح في صحراء الحياة، وهو الملجأ عندما تضيق الدنيا، وهو المشفى الذي تُداوى فيه جراح القلوب، ويدرك أنّ معنى تعلّقه بالمسجد لا يعني أنْ يعتكف فيه ليله ونهاره، بل يعني ويقتضي انّه في حال خروجه منه ترك قلبه فيه، فانتظر الصلاة التالية بشوق، وأسرع الخطى إلى بيت اللّٰه كما يُسرع الظمآن إلى الماء، وكان همُّه أنْ يُصلّي الفجر في جماعة وإنْ كان النوم يُثقل جفنيه، فيقطع المسافات ليدرك التكبيرة الأولى، ويحزن إذا فاتته صلاة الجماعة أكثر من حزنه على مال ضاع منه...

ARAB-PSF.COM

ورابعهم؛ أخوّة أقوى من رابطة الدم جمعت بين متحابيّن في اللّٰه...

ففي زمن فرضت فيه المصالح هيمنتها على العلاقات، وبنيت الصداقات على المنافع، يبرز نموذج فريد من الحب، وهو الحبّ في اللّٰه، ولا يقصد به حبّ الجمال أو المال أو الجاه، إنّما قصد الحبّ الخالص الذي يقرّب الإنسان إلى اللّٰه، فيذكّره إذا نسي، ويدعوه إلى الخير، ويأخذ بيده إلى الجنة، فهذان الرجلان - أو الامرأتان – إذا اجتمعا كان اجتماعهما على طاعة اللّٰه، لا الوظيفة أو المصلحة، فما جمعهما هو حبّ اللّٰه، فإذا تقابلا ذكّر أحدهما الآخر باللّٰه، وإذا افترقا دعا كلّ منهما لأخيه بظهر الغيب، وإذا احتاج أحدهما لم يبخل الآخر، فالحب في اللّٰه يبني مجتمعاً متماسكاً، أمةً واحدة، نسيجاً اجتماعياً لا ينفرط عند أوّل أزمة، فما أشدّ حاجة مجتمعاتنا إلى هكذا ودّ، في زمن العوالم الافتراضيّة والصداقات التي تنعقد من وراء شاشات رقميّة...

وخامسهم؛ عفيف يخاف اللّٰه في زمن السقوط...

ففي لحظة الفتنة العظمى، وعندما تتجسّد الشهوة في أبهى صورها، في امرأة ذات منصب وجمال، فتطلبه وتدعوه، في خلوة بعيداً عن أعين النّاس، بلا رقيب إلاّ اللّٰه، في هذه اللحظة الفاصلة بين الجنة والنار، ينطق القلب المؤمن بحقيقة إيمانه فيقولها مدويّة: "إنّي أخاف اللّٰه"، فهذه الكلمة الخالدة التي قالها نبيّ اللّٰه يوسف عليه السلام، يردّدها كلّ عفيف في كلّ زمان، فهي ليست مجرّد كلمة تُقال باللسان، إنّما هي ثمرة إيمان راسخ وخوف من عذاب اللّٰه ورجاء في جنته، وهي تجسيد لمعنى العفّة الحقيقيّة، التي تتجاوز فكرة كبت الغريزة، لتصبح توجيهاً لها في المسار الصحيح، فالإسلام لم يطلب منّا أنْ نُميت مشاعرنا، بل أنْ نحفظها ونصونها للحلال، فقد بتنا في زمن غريب فقد حياءه، إذ أصبحت فيه الفاحشة على بُعد شاشة، والزنا أصبح يسمّى ارتباطاً وعلاقة، والخيانة تُسمَّى حرية شخصية، فنحن هنا حاجتنا أشدّ ما تكون لجيل يصدح بصوته ليقول : "إنّا نخاف اللّٰه"..

وسادسهم؛ معطاء متصدّق في الظلام لا تعلم شماله بما أنفقت يمينه....

فنحن في زمن يصعب فيه على البشر أنْ يكونوا مخلصين، لكون الإخلاص قمّة صعبة المنال، قمة تقتضي أنْ تفعل الخير دون أن يراك أحد، وأنْ تُنفق المال دون أنْ تنتظر شكراً أو ثناءً أو حتى دعاءً من أحد، وأنْ تُخفي صدقتك حتى عن أقرب الناس إليك، فهذه العبادة هي ما سيوصلك إلى تلك القمّة، فالمتصدق في الخفاء ليس بالبخيل الذي يخجل

ARAB-PSF.COM

من صدقته، بل هو مؤمن يعلم أنّ اللّٰه يرى، ويكفيه أنْ يعلم اللّٰه صنيعه، فيُخرج المال وقلبه مطمئن أنّه يضع ماله في البنك الإلهيّ الذي لا يفلس ولا يُغلق، ويُعطي في الظلام لأنّه يريد نوراً يوم القيامة، وهو شخص يوقن أنّ بناء المجتمع المتكافل لا يحتاج الإعلانات والصور في وسائل التواصل، إنّما يتطلّب وجود أيادٍ خفيّة تمتدّ في الظلام لتُنقذ محتاجاً، لتُطعم جائعاً، لتكسو عارياً، ولتُعالج مريضاً، وهو يعلم بأنّ ثقافة الإخلاص في الصدقة إنْ شاعت، فمن شأنها أنْ تبني مجتمعاً لا يُحتَقر فيه الفقراء ولا يتكبّر فيه الأغنياء، مجتمعاً يتحرّك فيه المال من الجيوب الممتلئة إلى البطون الخاوية دون أنْ تتورّم الأنوف بالغرور....

وسابعهم؛ باكٍ في خلوة يهاب اللّٰه ولا يرى دموعه سواه...

فلا يوجد أعظم من مشهد يكتب في صحائفنا، من مشهد رجل في جوف الليل، أو في خلوة بعيداً عن أعين الناس، يذكر اللّٰه فتفيض عيناه، فهو لا يبكي لمصيبة دنيويّة، ولا حزناً على فقد محبوب، إنّما يبكي بدموع خشية من اللّٰه، ودموع شوق إلى لقائه، ودموع توبة صادقة، ودموع تذكُّره بذنوبه وندمه، أو تدفعه للتفكُّر في عظمة الخالق، فهذه الدموع التي لا يراها إلا اللّٰه، تُطفئ نيران جهنم عن صاحبها، وتُضيء له طريق الجنة، فهي دموع القلوب الحيّة، النابضة بالإيمان، المتيقّظة من غفلة الغافلين، لا دموع ضعف أو جبن، فخشية اللّٰه قوّة إيمانيّة عظيمة، يفقدها من امتلك قسوة القلب الذي لا يلين، وعيوناً جافّة لا تدمع، ومردّ ذلك كثرة المحرّمات وكثرة الغفلة، لذلك فنحن في حاجة ملحّة لإعادة اكتشاف حقيقة الخلوة مع اللّٰه، فما أحوجنا إلى لحظات ننفرد فيها مع خالقنا، نناجيه، نبكي بين يديه، نتوب إليه، ونطلب منه المغفرة والرحمة....

وبعد، فأين نحن من السبعة السابقين؟ وهل نحن منهم؟

وهل ننتظر أنْ نمتلك الصفات السبع السابقة جميعها؟

الجواب لا، فالكمال للّٰه وحده، ولكنْ وجب هنا أنْ نقف مع أنفسنا للحظة، ونرى ما الذي نحمله في قلوبنا وذواتنا، فهل فينا شيء من العدل؟ أو من عبادة الشباب؟ أو من تعلّق قلوبنا بالمساجد؟ أو من الحبّ في اللّٰه؟ أو من العفة؟ أو من الإخلاص في الصدقة؟ أو من الخشية والبكاء؟

ARAB-PSF.COM

أيًّا كان ما نجده أو نفقده، فلنكن على يقين بأنّ الطريق إلى ظلّ العرش ليس مستحيلاً، لكنّه يحتاج إلى نيّة صادقة بأنْ نكون من أهل هذا الفضل، واستشعار عظمة الجزاء والحاجة الماسة إلى ظلّ اللّٰه، ومجاهدة النفس في سبيل نيل هذا الشرف في الاستظلال، والمداومة ولو على القليل لمعرفتنا بأنّ اللّٰه يحب العمل القليل الدائم، والتربية الأسرية التي تنقل هذه القيم إلى الأبناء فتكون الأسرة سبباً في دخولهم تحت ظلّ اللّٰه...

فلنتذكّر..

بأنّ الدنيا قصيرة، والموت قريب، والحساب آتٍ لا محالة، فلنختر أنْ نكون من هؤلاء السبعة أشخاص، ولنختر ولو صفة واحدة، ونجعلها مشروعنا لعام كامل، فنعمل عليها، نطوّرها، نتقنها، حتى تصبح جزءاً من شخصيتنا، متذكّرين بذلك قرب يوم القيامة، ودنوّ الشمس، وتصبّب العرق، ووقوع الناس في الكرب العظيم، آملين وطامعين في وجودنا في ظلّ اللّٰه تعالى يومها...

فهذه دعوة لنعمل معاً على غرس حبّ سنّة نبينا ﷺ في قلوب طلبتنا، فبها تستنير قلوبهم وتسمو أخلاقهم وتزكو أنفسهم، حتى يصبحوا قدوة في الخلق القويم...

راجين أنْ يجعلهم اللهم ويجعلنا من السبعة الذين يظلّهم اللّٰه بظله، يوم لا ظلّ إلا ظلّه، ويجعل أعمالهم وأعمالنا خالصة لوجهه الكريم، ويختم لهم ولنا بخير، ويدخلهم ويدخلنا جنته مع الأبرار....

اللهم آمين.....